

# نساء الثقافة العربية وصلتها بالتراث الإنساني القديم

## بقلم محمد عبد

١ -

يتميز العصر العباسي الاول في تاريخ العرب العلمي - باتفاق معظم الدارسين - بميزتين انفرد بهما على ما سبقه وما لحقه من عصور ، فيتميز هذا العصر بانه قد بدأ فيه وضع العلوم العربية بمعناها المحدد المنظم وقد كانت من قبل بلا تحديد ولا تنظيم ، ذلك ان العلماء لم يفرقوا من قبل تفريفا حاسما بين علم وآخر ، فالثقافة وحدة واحدة ، والعالم يتحدث في الفقه وفي التفسير وفي النحو وفي اللغة وفسي الاخبار والاشعار والنوادر ، ولم يكن للحديث في هذه الامور منهج منظم يحكم من يتحدث او يؤلف في موضوعه في اطار معين ، وانما هسي جزئيات يتناولها اولو العلم كيفما اتفق ، فمن تحدث في الفقه تحدث فيما يعرض له من مسائله اجتهادا من القرآن والسنة ، ومن اقرأ النحو او الف في تناول مسائل منثارة قصيرة النفس .

وفي العصر العباسي الاول بدأ وضع العلوم بطريقة محددة منظمة ، يقول الذهبي : « وكثر تدوين العلم وتبويه ، فدونت كتب العربية واللغة والتاريخ ، وايام الناس ، وقبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم ، او يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » (١) فالذهبي يقرر بنصه السابق ان العلوم قد دونت محددة منظمة ، وان العلماء قبل هذا العصر لم يؤلفوا بالمعنى السابق بل كانوا يتحدثون من ذاكرتهم ، او يملون من صحف غير مرتبة ، وان كنا لا نستطيع ان نحدد بداية ذلك بالتاريخ السياسي للدولة العباسية ( ١٣٢ هـ ) فالعصور العلمية لا يمكن تحديدها تحديدا قاطعا كالعصور السياسية ، بل نقول بالتقريب : ان التأليف العلمي العربي قد بدأ بصورة منظمة مستقلة منذ بداية القرن الثاني .

وقد كانت هذه ميزة لهذا العصر على ما لحقه من عصور ، ذلك انه وضع البذور العلمية الاولى التي بنى عليها من جاء من بعد ، فقل ان نرى علما اسلاميا نشأ من بعد ، ولم يكن له اصل في هذا العصر ، وضع تفسير القرآن ، ووضعت علومه ، ووضع علم النحو ، ونما حتى السف فيه سيويه كتابه المشهور ووضعت كتب اللغة ، ورسم خطها الخليل ابن احمد ، بل بدأ البحث فسي الفلسفة والتاريخ ، والطب والفلك وغيرها (٢) .

واما الامر الثاني الجديد والخطير في هذا العصر فهو حركة الترجمة التي صاحبت بداية البحث في هذه العلوم - وهي التي نهما بصفة خاصة في هذا المقال - ذلك ان حركة التأليف العلمي العربية قد تأثرت الى حد كبير - في الدارسين وفي مادة الدراسة - بالثقافات الاجنبية التي عاصرتها وسبقها في الزمن . ويحدد السيوطي اول خليفة بدأت في عهده الترجمة بقوله : قال محمد بن علي الخراساني : المنصور اول خليفة قرب المنجمين ، وعمل باحكام النجوم ، واول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاجمية بالعربية ، ككتاب كليلسة ودمنة ، واقليدس (٣) ، واذا كان من روى عنه السيوطي يفغل الجهود العلمية التي تمت بعيدا عن الجهات الرسمية من قبل ، فانه يدل بما قاله على

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠٢

(٢) راجع : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٣

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٠٥

عناية الخلفاء العباسيين بالترجمة وتشجيعها من جهة ، وعلى قوتها وتأثيرها كجانب هام من جوانب الثقافة في عصر المنصور وبداية التأليف من جهة اخرى .

والثقافات التي صاحبت الفكر العربي في تلك الفترة هي الفارسية والهندية والهلينية ، وساتناول هذه الثلاث باختصار - تسمح به طبيعة المقال - مبينا كيف حدثت الصلة بينها وبين التفكير العربي في فترة التأليف العلمي التي سبق ذكرها ، ثم مدى تأثيرها فيمن قدموا جهودهم العظيمة في هذه الحركة الرائعة ، واخيرا نتيين في ضوء هذا البحث ما يمكن ان يفيد منه الباحثون والقراء .

## ٢ - الفارسية

غزت الجيوش العربية بلاد الفرس في عهد الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب ، وخضعت هذه البلاد حربيا بعد موقعةي القادسية ونهاوند ، وبدأ بين الشعين العربي والفارسي عهد جديد ، وعلاقات فكرية واسعة المدى خطيرة النتائج ، فانتشر الاسلام بين الايرانيين انتشارا سريعا ، لما كانوا يعانونه من تخلف ديني ، وتحكم طبقي ، كما صاحبه انتشار اللغة العربية ، فاصبحت هي اللغة الرسمية لشئون الدولة ، والصلة بين الفاتحين والاييرانيين . ويهمننا ان نعرف الى اي مدى كان تأثير الناحية الفكرية لاندماج الفرس بالعرب بعد فترة كافية لنضج هذا الاندماج وتبانه استغرقت تقريبا القرن الاول الهجري كله .

ويمكن ان نقول باختصار : ان الفرس الذين اسلموا قد اثروا في الثقافة العربية تأثيرا قويا بما قدموه من ابحاث ، وافكار خصبة ، على حين نأثر لسانهم الفارسي بنفس القوة باللغة العربية .

اما تأثيرهم في الفكر العربي والتأليف العلمي ، فلم يكن ذلك لانهم نقلوا مناهج واصولا ومادة علمية كانت معدة لديهم من قبل ، فطبقوها على الثقافة العربية ، وغذوها بها - كلا ، لم يكن الامر كذلك ، بل ان حضارة الفرس العريقة التي كانوا يعيشون فيها من قبل قد اكسبتهم استعدادا ذوقيا وفكريا ، وتهيؤا حضاريا عاشوا فيه طويلا من قبل ، وعندما حل ميعاد التأليف العلمي العربي تقدم منهم في هذا الميدان من اثره ونموه ، فزاملوا غزايهم المعتزين بلغتهم في الكتابة بهذه اللغة ، ودخلوا معهم ثقافتهم مؤلفين مثلهم ، لا بما ترجموه من ثقافة كانت معدة لديهم « فالنقل عن الفارسية كان قليلا ، وكان ميدانه ضيقا ، فقد انحصر في بعض الكتب الادبية التي نقلها علماء مثل ابن المقفع الى العربية ، كما فعل في كتاب تنشر » (٤) .

وقد غالى بعض المستشرقين في نظرتهم لما قدمه الفرس للثقافة العربية ، فراح يدل بدراساتهم العلمية في التأليف العربي ، فيقول ج. براون : « خذ مما يسمى في العادة بعلوم العرب من تفاسير وحديث وكلام وفلسفة وطب ومعاجم لغوية وتاريخ وتراجم ، بل ومن نحو عربي ما ساهم به الفرس من اعمال ، تجد ان خير ما كتب من هذه الاعمال قد تولوه » كما راح بعضهم الاخر يدل بالاسماء الفارسية الالامعة في مجال التأليف ، وان العرب مدينون بكل الامتنان لعلماء الفرس ، فيقول :

(٤) تراث فارس ( مجموعة مقالات للمستشرقين ) - مقالة اسلام

الفرس ، ص ٢٤

### ٣ - الهندية

بدأت الصلة السياسية بين العرب والهنود بالفتح العربي، وكانت هناك صلات تجارية بينهما منذ آمام بعيدة . بل ان ذلك في زأي بعض الباحثين ، كان أحد الطرق التي عبرت عليها ثقافة اليونان إلى الهند قديما .

وقد راود الفتح الخليفة الثالث عثمان بن عفان . ويحكى البلاذري: انه لما ولي عثمان بن عفان ، وولي عبدالله بن عامر بن كريب العراق، كتب اليه يأمره ان يوجه الى نهر الهند من يعلمه ، وينصرف اليه بخبره ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، فلما رجع اوفده الى عثمان ، فسأله عن حال البلاد ، فقال : يا امير المؤمنين ، قد عرفتها وتحررتها ، قال: فصفاها لي ، قال : ماؤها وشل ، وثمرها بقل ، ولصها بطل ، ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثروا جاعوا ، فقال له عثمان : اخبر ام ساجع ، قال: بل خابر ، فلم يفرها احد (٨) . وعلى كل حال فقد فتحت الهند فيما بعد ، فتحها محمد بن القاسم الثقفي بتوجيه من الحجاج بن يوسف الثقفي أيام الوليد بن عبد الملك .

كان من الطبيعي ان يحدث بين العرب والهنود صلات ثقافية نتيجة التجارة والفتح ، وان يثائر كل منهما بالآخر ما دامت قد وجدت ظروف الاندماج والاختلاط ، خصوصا وان الهند من الامم العريقة ذات الحضارات القديمة .

وتحديد نقطة البداية في الصلات الثقافية بين العرب والهنود يحتاج الى جهد اكبر من هذا المقال ، ولكن المؤكد ان الهنود في العصر العباسي الاول الذي بدأ فيه تدوين العلوم العربية كانت لهم صلات بالثقافة العربية ، وان كانت صلتهم متأخرة نسبيا عن الصلة العربية الفارسية ، ولم يبد للهنود - باحثين أو مادة علمية - من الاثر والمشاركة الفعالة مثل ما صنعه الفرس ، ولم يكن لهم من العمق والقوة في التأثير العلمي ما يداني اخوانهم الفرس في الاندماج الحيوي الثمر ، وانما اقتصر صلاتهم على بعض فروع المعرفة ، واثروا فيها تأثيرا جزئيا ، ويبدو ان السبب في ذلك هو بعدهم المكاني عن العرب ، وان صلتهم بهم بدأت متأخرة عن الفرس ، وان معارفهم معارف منكمشة تقتصر على الميادين العلمية ، والحكم الساذجة .

وعلى كل حال ، فقد وجدت الصلات حتى في هذا الاطار الضيق، وعاش بعض علماء الهند في بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد ، ورحل الى الهند بعد الفتح العربي علماء من العرب المسلمين ، ومن اشهرهم « البيروني » في القرن الحادي عشر الميلادي الذي طاف ببلاد الهند ، ونشر فيها علوم العرب ، يقول ي . هل : وكان طبيعيا ان يتجلى اعظم احتكاك حيوي بين الثقافات المختلفة عندما أصبحت الديانة الجديدة هي حلقة الاتصال بين الحاكم والمحكوم (٩) ، وقد بدأ اثر هذا الاحتكاك الحيوي في عصر التأليف - بدليل وجود العلماء الذين اشرت اليهم سابقا - وهذا لا يمنع من وجود مجهودات فردية قام بها العلماء من قبل ، غير انها لا يمكن ان تقارن بصورة التأثير التي حدثت فيما بعد في عصر النهضة العربية الراقية .

وقد كان للهنود ميادين خاصة - وضيقة على ما ذكرت - اثروا فيها ، ومن أهمها الحكمة والرياضيات والفلك ، يقول دي بور « وقد ذاعت المعرفة بالحكمة الهندية بين العرب ... وترجم الكثير من هذه الحكمة في عهد المنصور والرشيد » « وكم من اقوال في الحكمة الاخلاقية او السياسية اخذت من قصص الهنود واساطيرهم مثل قصص بانتشانترا ( كليلة ودمنة ) وغيرها التي نقلها عن الفهلوية ابن المقفع في عهد المنصور » « وكان للرياضيات الهندية اكبر الاثر في بواكير الحكمة العقلية في الاسلام ، وعرف كتاب السند هند لبرهمكوت » (١٠)

- التتمة على الصفحة ٧١ -

« ولا مجال هنا لسرد طائفة جافة من الاسماء ، ولكن يمكن توضيح قولنا بامثلة قليلة اذا ذكرنا ان الاسماء الآتية كانت لعلماء من الفرس، سيبويه ( ت ٧٩٣ م ) الكسائي ( ت ٨٠٥ م ) الفراء ( ت ٨٢٢ م ) وهؤلاء كانوا من النخبة ، ومن اللغويين ابن قتيبة ( ت ٨٨٩ م ) والجوهري ( ت ١٠٠٢ م ) وابن فارس ( ت ١٠٠٥ م ) » واستمر بعد ذلك في عد قائمة طويلة باسماء الفقهاء والشعراء والكتاب والجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة (٥) . ولا ينكر احد ما قام به هؤلاء العلماء الافذاذ من مجهودات علمية تستحق الثناء والتقدير ، بجانب الاف العلماء من العرب الخالص في كل مجالات العلوم مثل « ابي عمرو بن العلاء المازني » ( ت ١٥٤ هـ ) والذي يطلق عليه صفة « استاذ الاساتذة » والخليل بن احمد الأزدي ( ت ١٧٠ هـ ) وهو استاذ سيبويه ، وثقة اللغة سعيد بن اوس الانصاري ( ت ٢١٥ هـ ) وغيرهم في كل فنون المعرفة العربية ، فقد دخل الجميع ميدان التأليف العلمي وتزاملوا في انتاج هذا التراث العظيم باللغة العربية وفسي رعاية الاسلام .

فاذا ما ركزنا على الجانب اللغوي خاصة عرفنا قيمة الرأي الشائع الذي يتخذ من تقدم البصرة فيه دليل مزية للفرس على هذا الجانب الهام من ثقافتنا ، والذي يردده كثير من المستشرقين ، ويتابعهم فيه غيرهم من الدارسين ، اذ ينسب فون كريمر Von Kremer نشأة النحو العربي وابحائه الى غير العرب ، فيقول « وهناك رواية يتناقفها الناس في اغلب الاحيان ، وبمقتضاها كان تسرب الفساد الى اللغة العربية في البصرة هو السبب في ضرورة وضع قواعد النحو لانقاذ اللغة العربية من الاضمحلال والفساد في المستقبل ، ولا حاجة بنا هنا الى القول بان هذه الرواية لا يعول عليها اطلاقا ، ولا اساس لها، فالنحو العربي من وضع الاجانب من الآراميين والفرس » (٦) فهذا الرأي يأخذ المسألة من وجهة نظر جانبية منحازة ، تماما مثل الرأي الاخر الذي انكره « كريمر » والذي يرى ان العرب هم اصحاب كل الفضل فسي هذا الموضوع ، فمن الحق ان كلنا الطائفتين قد ساهمت في ذلك بعد ان اندمجتا في اطار الوحدة الدينية واللغوية ، ولا داعي لاطلاق لفظ الاجانب على غير العرب - فقد تعربوا بدخولهم الاسلام وحديثهم بالعربية، وفي ذلك يقول احد المنصفين : ولا يمكن ان نعرف على وجه التحقيق اولئك الذين بدأوا بدراسة فقه اللغة العربية ، ومن المحتمل ان الاجانب والفرس ، بصفة خاصة قد قاموا بوضع الاساس في ذلك ، ولكن ذلك ما كان يتم لهم لولا معونة العرب الصادقة (٧) ، ففي هذا الجانب الهام من ثقافتنا لا يخرج الامر عما سبق من ان جهد الفرس كان جهد الزائلة لا الاستاذية ، جهد المشاركة لا النقل والتفرد بابداع واختراع .

اما تاثر اللغة الفارسية بالعربية ، فقد تقدم ان الفرس قد اعتنقوا الاسلام ، وتحدثوا العربية ، واللغة الفارسية التي كانت قبل الفتح قد انهارت تماما بعد الفتح ، وتلاشت في لهجات التكلم العامية ، واللغة الادبية الفارسية التي نشأت بعد ، قد نشأت فسي كنف العربية وتحت وصايتها . فكان من الطبيعي ان تتأثر تاثرا كبيرا وعميقا بلغة الفاتحين العرب في مفرداتها واصطلاحاتها وبلاغتها ، بل وفي قواعد نحوها احيانا، مما يعرفه جيدا الدارسون لكلنا اللغتين في عصرنا الحديث .

من هذا العرض الموجز نتبين الحقائق التالية : ان الفرس دخلوا التأليف العلمي مجتهدين كما دخله العرب ، ولم يكن لثقافتهم السابقة كبير تأثير ، كما نتبين ايضا سوقية ما يشاع من فضلهم المتفرد على الدراسات اللغوية العربية ، بل ان الامر بالعكس حيث اثرت العربية في الفارسية اعماق التأثير .

(٥) راجع هذا الموضوع في السابق ص ٢٦٤ - ٢٦٥

(٦) الحضارة الاسلامية ومدى تاثرها بالمؤثرات الاجنبية ص ٩٠

(٧) انظر : الحضارة العربية ص ٦٩

(٨) فتوح البلدان ص ٤٢٨

(٩) الحضارة العربية ص ١٠٧

(١٠) راجع هذه الاقوال في : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٢١٢

## نشأة الثقافة العربية

— تمة المنشور على الصفحة ٥ —

ويقول احمد امين « واتصل المسلمون بالهنود ، واخذوا عنهم كتاب السند هند وترجموا كتابا ثانيا باسمه الاركد ، وثالثا اسمه الارجهير » (١١) ويقول ي. هل « وكان الفلك من احب الدراسات الى العرب بعد الرياضيات ... ثم زاد الاقبال عليه بعد ترجمة «السيدھانتا» وهو كتاب الفلك عند الهنود القدماء » (١٢) .

هذه شذرات تشير الى ما وجه اليه العرب اهتمامهم من ثقافة الهنود ، وهي تدل على ما سبق ان ذكرته من الانحصار في لون معين من الثقافة ، وفي جانب ضيق فيها ، لم يتجاوزوه الى الجوانب الحيوية الاخرى ، التي طرقها العرب ، مثل الدراسات اللغوية والكونية والعقلية ، ولكنني وجدت حديثا للبروني يشير الى تأثير في نشأة التفكير اللغوي عند العرب ، اذ يحكي في حديثه عن النحو والشعر في الهند فيقول : هذان الفنان من العلوم آلة لبواقياها ، والمقدم عندهم منها علم اللغوة المسمى ( بياكرن ) وهو نحو يصحح كلامهم ، واشتقاقات تؤدي بهم الى البلاغة في الكتابة والفصاحة في الخطابة ولسنا بمهتدين لشيء منه ، فانه فرع اصل قد عدناه ... وقالوا في اولية هذا العلم ان احسد ملوكهم واسمه ( سملواهن ) كان يوما في حوض يلعب فيه نساءه ، فقال لاحداهن ( ماودكندهي ) اي : لا ترشي علي الماء ، فظنت انه يقول ( مودكندهي ) اي : احملني حلوي ، فنهبت فاقبلت به ، فانكر الملك فعلها ، وتشاجرا ، فحزن الملك ، وامتنع عن الطعام حتى جاءه احد علمائهم ، وسلى عنه ووعده تعليم النحو وتصريف الكلام ، وذهب ذلك العالم الى ( مهاديو ) مصليا متضرعا ، حتى ظهر له ، واعطاه قوانين يسيرة كما وضعها في العربية ابو الاسود المؤلي (١٣) .

وهذه القصة يبدو فيها الخيال والسذاجة والوضع شأن كثير من القصص التي اختلفت عن كثير من بدايات العلوم ، ولكنها نجد فيها امرين يستحقان المناقشة هما : وجود نحو وصرف لدى الهنود وان ابا الاسود قد وضعه في العربية كما كان عندهم .

اما الامر الاول فانه وان كان البروني يقول « ولسنا بمهتدين لشيء منه ، فانه فرع اصل قد عدناه » فقد اهتمدنا نحن للاصل والفرع ، اذ اكتشف اللغويون المحذون اللغة السنسكريتية ونحوها وصرفها وقارنوها بلغات اخرى من نفس الفصيلة ، وليس فيما اكتشف ما يشير الى صلة بدراسات اللغة العربية ، ففي اي شيء اذن تائر ابو الاسود المؤلي ؟؟ — ربما قد تائر في مجرد اثارته الى هذا العمل ، ولكن ذلك ايضا لا يجد ما يؤيده ، لان ابا الاسود كان في وقت مبكر عن الاندماج العلمي بين العرب والهنود ، ولاننا لا نجد في دراسة النحو العربي ما يؤيد هذه الفكرة .

نعم قد وجد في العربية من ساهموا بانتاجهم الادبي واللغوي من الهنود — وهم قليل — كابي السندي ، وابن الاعرابي ، ولكن شأن هؤلاء شأن غيرهم ممن ساهموا في الثقافة العربية من العرب والفرس ، فتعاونوا في حقل العربية ، وزاملوهم في هذا الانتاج العظيم . ومن هذا العرض الوجيه نتبين : ان الاحتكاك الفكري بين العرب والهنود بدأ متأخرا عما بينهم وبين الفرس ، وان تأثيرهم لم يكن من القوة والتوجه بالصورة التي ظهر بها الفرس ، وانه انحصر في مجالات ضيقة بعيدا عن تيار الثقافة العربية العميق الدافق .

## ٤ — اليونانية

لو اردنا ان نجد تحديدا دقيقا الصلة بالثقافة اليونانية في تاريخها وتطورها وطرقها ومظاهرها وتأثيرها في الثقافة العربية وموضوعاتها المختلفة لاحتاج ذلك لمجلد مستقل ، ولكن في هذا البحث الموجز — اضع خطوطا عامة تمس تلك الجوانب كلها ، دون ان يشط بنا الحديث في مسالك متشعبة وطويلة .

### أ — تاريخ الصلة بالثقافة اليونانية :

ان الثابت الذي سيتضح بعد انه في فترة تدوين العلوم العربية في القرن الثاني الهجري ، ثم ازدهارها بعد ذلك ، كانت الثقافة اليونانية معروفة لدى العرب ، اذ يرجع تاريخ هذه الثقافة الى ما قبل ذلك بزمان طويل ، فاليونان الذين كانوا اساتذة العالم القديم لم تقف ثقافتهم عند حدود وطنهم ، بل تسربت الى كثير من البلاد المعروفة في ذلك الوقت بفعل الاختلاط وهجرة العلماء . وكان من تلك البلاد التي احتضنت معارف اليونان سورية والعراق وبلاد فارس ، يقول لوبون : « كانت معارف اليونان والرومان العلمية القديمة منتشرة في بلاد الفرس وسورية منذ زمن » ويقول « قصد علماء ائينة والاسكندرية الى فارس فنقلوا الى اكثر لغات الشرق انتشارا كالسريانية والكلدانية اهم كتب علماء اليونان » (١٤) .

لقد وجدت اذن معارف اليونان في المنطقة التي جال فيها العرب فيما بعد ، وهي بلاد الشام والعراق وفارس ، والملاحظ في هذه الحركة العلمية ان اللغة السريانية كانت اكبر الاوعية التي حملت افكار اليونانيين وعلومهم لتوصيلها الى كل من الفرس والعرب ، على الرغم من ان اكاسرة الفرس قد احتضنوا العلماء الوافدين اليهم من الشام والعراق وائينة ، ويشير ذلك الى حقيقة ستتضح بعد ، وهي مقدار قوة اللغة السريانية ونفوذها الثقافي في هذه المنطقة من العالم في ذلك الوقت . وحين فتح العرب مناطق نفوذ الثقافة اليونانية — الشام والعراق وفارس — استوقف نظرهم هذه الثقافة الفنية ، واثار دهشتهمما وجدوه من فنون وعلوم واداب هيلينية ، فبدأوا التفاعل مع تلك الثقافة في وقت مبكر ، واتجهوا لنقلها الى لغتهم بجهود غير منظمة اولا ، اذ يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان عالما بالكيمياء والطب انه جمع حوله جماعة من المشتغلين بالعلم والبارعين في اللغة اليونانية ، لكي يترجموا الكتب اليونانية الى العربية ، وكان هذا اول معرفة للعرب بالثقافة اليونانية في لغتهم (١٥) ، والذي تشير اليه هذه الرواية — بصرف النظر عن مناقشة صحتها — انه كان هناك مجهودات فردية في نقل تلك الثقافة الى العربية في وقت مبكر ، ولكن في عصر تدوين العلوم ، اصبحت تلك الثقافة معروفة تماما « واصبح الرسم عند الخلفاء عامة ان ينقلوا عن اليونان اكبر قدر من ثقافتهم ، وكان للمنصور وهارون الرشيد ثم للمأمون باع في هذا الميدان » (١٦) بل ان العرب لم يكتفوا بما وجدوه من ثقافة اليونان في اللغة السريانية ، بل تعلم كثير منهم اللغة اليونانية ، ليتصلوا بثقافتها اتصالا مباشرا ، ولينقلوا الى اللغة العربية ما لم يكن قد نقل من قبل الى السريانية .

### ب — اهم مراكز الاتصال بالثقافة اليونانية :

كان للثقافة اليونانية مراكز شهيرة عرفها العرب حين جالوا ببلادها ، ومنها « حران » و « جنديسابور » و « الاديرة النصرانية » وهذه الثلاثة تمثل اهم مراكز الاتصال في البلاد الثلاثة العراق وفارس والشام ، وساقدم عن كل منها فكرة موجزة ، تبين نشاطها العلمي واتصال العرب بها .

#### أ — حران :

مدينة كانت في شمال العراق ، وهي موغلة في القدم ، اذ عاصرت — كما يقول احمد امين — اليونان والرومان والنصرانية والاسلام ، وقد

(١٤) انظر : حضارة العرب ص ٤٣٣ .

(١٥) غراث فارس : مقالة اسلام الفرس ص ٢٣

(١٦) السابق — نفس الصفحة .

(١١) ظهري الاسلام ج ١ ص ٢٥٥

(١٢) الحضارة العربية ص ١١٠

(١٣) تحقيق ما للهند من مقولة Chapter 13 ص ٩٥

مدرسة ، ولعل منشأة واحد اذ اخذه السريان من الاغريقية، واستعملته الانجليزية ايضا .

هذه المدارس الملحقة بالديارات على الرغم من انها مدارس لاهوتية، فقد كانت تعنى بدراسة كثير من العلوم الدنيوية ، ومن هذه العلوم النحو والبيان والفلسفة ، والجدير بالذكر ان اللغة السريانية واللغة اليونانية كانتا تدرسان جنبا الى جنب في مدارس تلك الاديرة (٢٠) . كانت مدارس الاديرة تهتم اذن بالعلوم الدنيوية واللاهوتية ، وتجاوزت بها اللغة السريانية واليونانية ، وبذلك تهيأت وسائل نقل ثقافة اليونان الى اللغة السريانية « فترجموا منها ليس ما يتعلق بالدين فحسب ، بل وكل ما يتناول الامور الدنيوية كذلك ، وغدا الشائع ان يكرس الكتاب اهتمامهم الخاص بارسطو وبقراط وجالينوس » (٢١) وبذلك يمكننا ان نقدر تلك الثروة الكبيرة من الكتب اليونانية التي وجدها العرب حين اتصلوا بسورية والعراق ، والتي يقول عنها لوبون : « فوجد العرب في بلاد فارس وسورية حين استولوا عليها خزائن من العلوم اليونانية ، وامروا بنقل ما في اللغة السريانية الى العربية ... فاخذت دراسات العلوم والاداب تسير قدما الى الامام » (٢٢) وبذلك اتضح الطريق الثالث - وهو اهم الطرق واخطرها - حيث سلكت ثقافة اليونان الى التفكير العربي .

ولا يمكن هنا ان استمر في عرض مفصل لما قامت به كل واحدة من هذه الثلاث، ودراسة العلماء الذين اشتغلوا في النقل بين هذه اللغات الثلاث - اليونانية والسريانية والعربية - فان لذلك حديثه الخاص ، وهدفه ان اقرر الصلة بين الفكر العربي واليوناني عن طريق هذه الثلاث ، ولعلي قد وفقت .

### ج - السريان ودورهم الثقافي بين العرب واليونان :

كانت تلك المراكز الثقافية المختلفة تروج بحركة علمية ضخمة في التأليف والترجمة ، وكانت تلك الحركة في جملتها تستخدم اللغتين اليونانية والسريانية سواء في المراكز العلمية او في مدارس الاديرة ، وقد شارك في هذه الحركة اجناس مختلفة كالفرس والافريق ، وكان من هؤلاء ايضا بعض رجال الدين من اجناس اخرى ممن فروا من وجه الاضطهاد الكنسي الشرقي ، ولكن البرزبين بين هؤلاء كانوا من السريان، فمن هم هؤلاء السريان ؟ وما هي لغتهم ؟ وما دورهم العلمي في الصلة بين الثقافة العربية واليونانية ؟؟

السريان مجموعة من القبائل السامية توطنت قديما سوريا والعراق وشمال الجزيرة العربية ، وكان يطلق عليهم اسم ( الاراميين ) - ولما جاءت المسيحية ، ودخلوا النصرانية ، غيروا اسمهم الى السريان وذلك لان الاسم الاول ( ارامي ) كان يذكرهم بوثنيتهم ، وفي العمرة لفظة ( ارامسي ) معناها وثني ، وقد كان تنصرهم من اسباب تأثرهم بالهليينية ، فكانت الاغريقية واللاتينية من اللغات التي تدرس في مدارسهم .

وترجع اللغة السريانية الى اللغة الارامية التي كانت لغة القبائل المنتشرة فيما يعرف الان بالعراق وسوريا وفلسطين ( بابل وآشور وكنعان قديما ) وقد تفلتت لغة الاراميين على جميع اللغات التي كانت منتشرة في هذه المنطقة ، وتم لها النصر النهائي عليها فيما قبل الميلاد ، ثم تشعبت اللغة الارامية الى لهجات عدة ، ومن هذه اللهجات اللغة السريانية المعروفة الان في الاوساط العلمية ، وقد اخترع الكتاب الاراميون المسيحيون الاصطلاح Suray ليدلوا به على لغتهم ، لان من اشهر اقاليم هذه اللغة هو اقليم « سوريا » واصبح يطلق على الارامية المسيحية اسم ( السريانية ) تحت تأثير العامل الديني السابق الذكر ، حيث كان يذكرهم لفظ « ارامية » بالوثنية .

(٢٠) لا يستطاع ذلك انظر : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ٥٣ وما بعدها .

(٢١) الحضارة العربية ص ١٠٦

(٢٢) الحضارة العربية ص ٤٣٣

اختلف فيها من السكان اجناس مختلفة ، فقد تجاور فيها اهلها الاصليون والافريق والارمن .

وقد نشطت الثقافة اليونانية في تلك المدينة نشاطا كبيرا، لوجود الافريق الذين يعيشون فيها من جهة ، ولترجمة كثير من الكتب اليونانية من جهة اخرى « وقد اخذ الحرانيون عن حسن نية باراء موضوعه ترجع للعصر الاغريقي المتأخر ، وقد نشط بعضهم في الترجمة ، وفي تأليف يدل على سعة العلم » (١٧) .

وقد ازداد نمو تلك المدينة ثقافيا في العصور القديمة حين انتقلت اليها في عصر متأخر نسبيا مدرسة « انطاكية » ومكتبتها التي ورثت مدرسة الاسكندرية من قبل ، وقوام الثقافة في المدرستين ، كان الثقافة اليونانية ، وبخاصة منطق ارسطو .

وعندما فتح العرب العراق ، وبدأت حركة التأليف العلمي افاد العرب من الحرانيين ، وعرفوا مظاهر نشاطهم العلمي ، وكانت هذه المدينة احد منابع التي استقى منها العرب ثقافة اليونان . ويحدد (دي بور) الوقت الذي اشتدت فيه الصلة بين علماء المدينة وبين العرب فيقول : « وكان الكثير منهم على اتصال علمي وثيق بعلماء الفرس والعرب من القرن الثامن الى العاشر (الثاني والرابع من الهجرة) » (١٨) وهو نفس الوقت الذي بدأ فيه التأليف العربي وازدهر .

ب - جنديسابور :

مدينة كانت في غرب فارس ، اسمها الملك الفارسي « كسرى انوشروان » حوالي ( ٥٣١ - ٥٧٩ م ) وقد ازدهرت الثقافة الهليينية في تلك المدينة ازدهارا عظيما ، وذلك بسبب العناية والرعاية التي لاقها علماءها من ملوك الفرس ، لان معظمهم كانوا من المسيحيين النسطوريين الهاربين من وجه الكنيسة الشرقية التي اضطهدتهم ، فاواهم الفرس - اعداء الرومان - ووجدوا عندهم التسامح والامان « ومن ثم استأنفوا دراستهم في الهدوء الذي ساد وطنهم الجديد ، واصبحوا رسل الحضارة الاغريقية الى العالم اجمع » (١٩) .

وقد اتصل العرب بثقافة تلك المدرسة في وقت مبكر عن اتصالهم بمدرسة ( حران ) وافادوا في حركتهم الثقافية في فترة التأليف ، وظلت هذه المدرسة التي كانت نتاجا للحضارة الاغريقية - كما يقول لوبون - تشع نورها ، وتنفض بالدراسة كذلك زمن العباسيين .

ج - اديرة الشام :

اذا كانت الثقافة اليونانية قد اوت الى ( حران ) في العراق ، و « جنديسابور » في فارس فقد وجدت لها ملاذا في الشام في الاديرة التي كان يلحق بها مدارس ، اسمها بالسريانية ( اسكولي ) ومنه اخذ العرب اللفظ ( اسكول ) الذي يدل على مدرسة مسيحية او مدرسة ملحقة بدير وهو نفس اللفظ المستعمل في الانجليزية School ومعناه

(١٧) تاريخ افلسفة في الاسلام ص ١٨

(١٨) السهاليق - نفس الصفحة .

(١٩) الحضارة العربية ص ١٠٦

## منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة  
من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب  
( سليمان باشا سابقا )

الرائع في هذه التركة الانسانية ، فافادوا ونموا ما افادوه ، وصبوه بروحهم وجهدهم ، واكبر دليل على هذه الفكرة هو عصرنا الحديث الذي تشترك وتتفاعل فيه كل الامم والشعوب في العلوم التجريبية والانسانية على السواء .

ثالثا : في تقويم تراثنا ينبغي ان يوضع في الاعتبار العناصر الفلسفية والمنطقية التي اثرت - مادة وتفكيراً - في كثير من العلوم ، وبخاصة العلوم اللغوية والدينية ، كالنحو وعلم الكلام والبلاغة والتفسير ، وما اصطبغت به من هذين الرافدين ، لكي تقوم دراستها وتنقيتها على اساس منهجي سليم .

محمد عيد

القاهرة

### المراجع بحسب ما وردت في هذا المقال :

- ١ - تاريخ الخلفاء السيوطي
- ٢ - ضحى الاسلام احمد امين
- ٣ - تراث فارس ( مجموعة من المستشرقين ) محمد كفاقي واخرين
- ٤ - الحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الاجنبية ( فون كريمر ) مصطفى بدر
- ٥ - الحضارة العربية ( ي. هل ) ابراهيم القدري
- ٦ - فتوح البلدان البلاذري
- ٧ - تاريخ الفلسفة في الاسلام ( دي بوب ) محمد عبدالهادي ابو ريده
- ٨ - تحقيق ما للهند من مقولة البيروني
- ٩ - حضارة العرب غوستاف لوبون
- ١٠ - التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ( مجموعة بحوث للمستشرقين ) عبد الرحمن بدوي
- ١١ - مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ( اوليري ) تمام حسان
- ١٢ - اللغة بين المعيارية والوصفية تمام حسان

وقد ظلت اللغة السريانية قوية حتى فتح العرب المناطق الموجودة بها ، واخذت العربية تطاردتها وتتصرع عليها ، وتحل محلها ، خصوصاً في المحادثة والحياة العادية ، وان كانت السريانية قد بقيت لغة كتابة وادب ودين بعد ذلك حتى القرن الرابع عشر الميلادي (٢٢) .

وقد قام السريان بدور هام في الصلة الحضارية والثقافية في العالم القديم ، فكانوا واسطة في نقل الثقافة من الشرق الى الغرب ، كما حملوا ثقافة اليونان الى مدارس الرها ونصيبين وحوران وجنديسابور ، وقد قاموا كذلك بنصيب عظيم في ترجمة كتبهم الى العربية ، بما تحمله من ذخيرة نفيسة ، وغنى علمي ، وقد شاركهم العرب في ذلك مشاركة ضئيلة اولا ، ثم مشاركة فعالة في وقت متأخر نسبياً ، ويدي دي بور بان الذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان الى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادي يكادون جميعاً يكونون من السريان (٢٤) ، وان كان هذا الادعاء في حاجة الى اثبات ، فمن غير العقول ان تحدث كل هذه المخالطة والمشاركة ، ولا يدخل العرب ميدان الترجمة الا بعد هذا الوقت الطويل ، خصوصاً في عهد يقظتهم العلمية النشيطة .

وعلى كل حال فمما يهمننا في هذا البحث ان نوضح نقطتين - لما لهما من عميق الصلة بما نحن فيه - احدهما ترجع الى صلتهن بالثقافة الهلينية ، والاخرى تعود الى صلتهن بالثقافة العربية ، وهما معا تكونان جسر انتقال الثقافة اليونانية الى التفكير العربي .

لقد اتصل اليونان بالثقافة اليونانية اتصالاً وثيقاً - كانت عوامله ما شرحناه فيما سبق - عرفوا منها الوانا مختلفة كالماتيمات والطب والاخلاق وما بعد الطبيعة ، والفلسفة ، ولكن وجهت عنايتهم بصفة خاصة الى المنطق ، وربما تعود هذه العناية الى صلة المنطق بالكتيب الدينية اليونانية وصبغها بالصيغة الصورية ، وقد اهتم السريان بهذه الكتب كما سبق ذلك ، فاهتموا ايضا بما تآثرت به وهو المنطق ، بسبب انهم حين درسوا لغتهم تأثرت دراستهم به ، واصطبغت بتلك الافكار المنطقية التي عرفوها عن اليونان (٢٥) .

فلما كانت الصلة بين العرب والثقافة اليونانية عن طريق السريان عرفوا عنهم ما عرفوه من قبل من تلك الثقافة ، وتأثروا بصفة خاصة بالابحاث المنطقية ، وبخاصة في الدراسات اللغوية العربية في عهدوها المتأخرة حيث اصطبغت بطريقة شكلية صورية ، وسرت فيها الطريقة الجدلية الذهنية الحادة - مما لا مجال لتفصيله هنا - اذ كان لارسطو ومنطقه فعل السحر في نفوس العرب ، كما كان له من قبل في نفوس السريان ، فحظي بعناية لم يظفر بها علم مثله فيما ترجم عن اليونانية . تلك هي صلة التفكير العلمي العربي بالثقافة اليونانية ، بينت - بايجاز غير مخل - تاريخه وطرقه ومن قاموا به ، وما قاموا به ، ولعلي قد وفقت في ذلك .

- ٥ -

وبعد :

فماذا يمكن ان يفيدنا الدارسون من هذا المقال العلمي عن صلة الثقافة العربية تاريخياً بالتراث القديم ؟؟  
اولاً : يمكن في ضوءه تقويم ما يشاع - عن عمد او سداجة - عن تخلف المغلقة العربية ، وان العرب مدينون لعلماء الفرس دينياً يقبل اعناقهم الى الابد في يقظتهم العلمية منذ القرن الثاني الهجري ، وقد تبين فيما سبق خطأ هذه الفكرة .

ثانياً : انه لا خجل مطلقاً فيما افاده الدارسون العرب والمتعربون من تراث اليونان العظيم ، فقد افاد العرب منهم كما افادوا غيرهم فيما بعد ، فالعلم ميراث البشرية تتناقله جيلا بعد جيل وهو دولة بين الناس لا يمكن لاحد ان يحتكره لنفسه والى الابد ، وقد ادى العرب دورهم

(٢٢) زاجع : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٢٧٤ - الفضائل اللغوية ص ٢٥

(٢٤) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢١

(٢٥) زاجع : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٦٩

### صدر حديثاً :

- ق . ل . ٥٠٠ ● صراع الطبقات تأليف ريمون آرون
- ٢٠٠ ● شتاء البحر اليابس ( رواية ) تأليف وليد اخلاصي
- ٢٠٠٠ ● آفاق الفكر المعاصر تأليف نخبة من اختصاصيي العالم
- ٣٥٠ ● درانمانا ( رواية ) تأليف محمد برجواي
- ٣٠٠ ● قوت الارض تأليف أندريه جيد

### تحت الطبع

- ١٠٠٠ - الهندسة الادارية للمهندس محمود الشكرجي
- ٥٠٠ - الاتجاهات الادبية في القرن العشرين تأليف البيريس

تطلب هذه الكتب وغيرها من :

منشورات - عويدات

ص. ب ٦٢٨ بيروت - لبنان

تلفون ٢٤٢٦٦٠